الفصل السادس

الاستكشافات الأولى والتسابق المحموم على الكعكة المتجمدة!

- الكابتن كوك يبحث عن "الأرض المستترة في الجنوب"
- العواصف دفعت سفينته نحو الجنوب.. فاكتشف القارة!!
- شاب في العشرين من عمره أول من وصل إلى انتاركتيكا!
- اكتشف لهم انتاركتيكا.. فقدموه للمحاكمة!!
- أعظم بركان في العالم.. يثور وسط الجليد!
- الشركات تنافس الدول في الاستكشافات!
- صراع الجبابرة في قاع العالم!

الإستكشافات الأولى.. متى بدأت؟

حملتُ العَلَمَ و "عدة الشغل" كما يقول الصحفيون المحترفون وهي المصوِّرات "الكاميرات" وجهاز التسجيل ودفتر الملاحظات، وعدت مع العائدين إلى السفينة

الكرم الكندي ارتفعت حرارته هذا المساء رغم برودة الجو الشديدة، فقد أعدوا لنا أطباقاً ساخنة منوعة للعشاء على غير العادة.. أدُاعب الفتاة الأرجنتينية العاملة في مطبخ السفينة بقولي: يبدوا أن القوم قد أصبحوا أرجنتينيين هذا اليوم، أو قد أصابهم شيئاً من خصالكم! إشارة إلى كرم الأرجنتينيين الذي لمسته أثناء زياراتي العديدة وكنت قد حدثتها عنه، خاصة تلك الوليمة العامرة التي أقامها لي السنيور جيرمان.. طربت الفتاة لهذا المديح وافترثغرها عن ابتسامة كبيرة، بانت من خلالها نواجذها وقد صفت كأنها عقد لؤلؤ أصلي من لآليء الخليج العربي الشهيرة وقالت يا لك من إنسان مهذب.. إنني أشكرك كثيراً على هذا الإطراء الذي لم أسمعه من أحد ركاب السفينة!..

شيء كهذا القول يفعل فعل السحر لدى سكان أمريكا الجنوبية، لأنه ومن واقع خبرتي العميقة التي إكتسبتها عنهم، يكفي أن تتحدث عن سجاياهم الحميدة وجمال بلدانهم، بل وحتى حُسن نسائهم، حتى تكتسب مودتهم!.. استعمل دائماً أفعل التفضيل (الأحسن، الأكبر، الأجمل، الأفضل.. الخ) وكل الصفات الحميدة الأخرى معهم، تحظى باحترامهم، وتكتسب مودتهم وصداقتهم.

من ضمن المحاضرات التي تستهويني كثيراً، تلك التي تتحدثُ عن المغامرات والمغامرين الأوائل الذين إرتادوا بحار القارة، وهتكوا سترها المصون، ونبشوا كل خبئ من أمرها.. الليلة وبعد العشاء، أعلْنوا علينا أن المحاضرة ستكون عن هذا الموضوع.. تسابقنا جميعاً

للحصول على مقاعد، لأن الطاقة الإستيعابية لقاعة المحاضرات أقل من عدد الركاب بكثير، إلى درجة أن المحاضرة الواحدة تُعاد مرة أخرى في اليوم التالي.

كان الكثير من العلماء والمكتشفين والملاحين والمغامرين، يعلمون إما بالحدس أو بالتخمين أو بالفرضيات العلمية، وجود أرض أو قارة في قاع العالم، حيث تفد منها كتل الجليد الضخمة، كأنها الرؤاسي الشامخات، أو الصناديق العملاقة!. بل إن الخارطة البحرية التي استخدمها "ماجلان" في رحلته الشهيرة حول العالم، رسُمَ فيها أرضا شاسعة تقع في قاع الكرة الأرضية ولم يكن ماجلان يعلم عنها شيئاً، أو لم يكن الوصول إليها ضمن خطته. ولكن هناك قرار العالم السحيق، الذاهب إليه مفقود مفقود! والعائد منه لم يولد بعد!! كما أن الأنواء الشديدة والرياح المرعبة التي أصابت أولئك المغامرين عند رأس هورن لن تدع لهم مجالا للتفكير في مغامرة أخرى نحو الجنوب، فإذا كان قرن الشيطان هذا بهذه القسوة! فكيف بمخدعه؟!!

ولكن ذلك الإنسان الذي جُبِل على حب المغامرة والمعرفة و إرتياد المجهول والكشف عن غموضه، هل سيبقى أبد الدهر عازفا عن إختر ق ذلك المجهول وركوب الصعاب لإماطة اللثام عنه.! ليس هذا دينه بالطبع ولا ذاك مسلكه.

يُعتبر "جيمس كوك" الملاح الإنجليزي العظيم، هو أول من إرتاد مياه المحيط المتجمد الجنوبي من المستكشفين. وعبر الدائرة القطبية الجنوبية ثلاث مرات. ولكن كيف قام الكابتن "كوك" بمغامراته تلك؟!.

كان هناك إعتقاد قوي منذ قديم الزمان بوجود قارة كبرى تقع في قاع العالم، أو كما كان يطلق عليها "الأرض المستترة في الجنوب!" "*Terra Australis Incognita*" وكان يُعتقد بأنها على درجة كبيرة من الغنى، وأن من يظفر بإستكشافها أولاً، فإنه سوف يظفر

بغنى لا نظير له يفوق تلك الثروات التي تم إكتشافها ونهبها من قارة أمريكا. وكانت إنجلترا سبّاقة في مضمار الإعداد لإكتشاف تلك القارة. لذا فقد صدرت الأوامر للكابتن "كوك" بعد عودته من رحلته الأولى، للإبحار مرة أخرى لتحديد وجود تلك القارة. فما كان منه إلا أن أبحر في رحلته الثانية سنة ١٧٧٢ إلى الجنوب، عازماً على أن يتوغل قد استطاعته نحو أقصى نقطة ممكنة في قاع العالم وأن يكتشف ويعيّن ويحدد جميع الأراضي الجنوبية في المحيط الهادي.

ولقد قام الكابتن "كوك" بهذه المهمة خير قيام، إلا أنه حدد وبصفة نهائية، بأن القارة الكبرى لا وجود لها. وأنه إذا كان ثمة أراض هناك في قعر العالم، فإنها بلا شك ستكون أراضٍ جرداء قاحلة موحشة يكسوها الجليد، وتحيط بها كتل الثلج الضخمة والتي تُعتبر أخطر العوائق الملاحية على الإطلاق.

كان هذا الافتراض الذي أورده الكابتن "كوك"، أعظم ملاحي عصره في سجلاته كافياً لأن يفت في عضد المستكشفين والمغامرين الذين جاءوا من بعده.

إننا نعرف جميعاً، بأن الكشوفات الجغرافية الكبرى التي حدثت في التاريخ كان سببها الأول اقتصادياً أو تجارياً. فرحلة كولومبس كان هدفها إيجاد طريق آخر للوصول إلى بلدان التوابل في الشرق الأقصى، بدليل أن كولومبس مات دون أن يدري بأنه اكتشف أراض جديدة، بعد أن أطلق على سكانها اسم الهنود الحمر! ثم تلاه بعد ذلك جميع الرحالة والمكتشفون حتى محاولات البحث عن "الأرض المحتجبة في الجنوب" أنتاركتيكا، كانت بسبب الإعتقاد الجازم بغناها الفاحش لذا فإن أول من فكر في معاودة البحث عن تلك القارة وإرتياد الجنوب، هم صيادوا الحيتان وعجول البحر، بعد أن إنقرضت تلك الحيوانات أو كادت والتي يطيب لها العيش في الأصقاع الباردة شمالاً.

أما أول من وصل القارة، أو بمعنى أدق أول من إكتشفها، فهذا محل خلاف شديد، خاصة بين إنجلترا وأمريكا وروسيا، وأخيراً الأرجنتين التي أخذت تنازعهم ذلك المجد العظيم. ولأن الأمر محل خلاف شديد، فإن الأمانة العلمية تحتم علينا أن نورد حجج وبراهين كل قوم، خاصة وأنه لا وجود لأية محاولة أو محاولات عربية في هذا الصدد للأسف الشديد! ونبدأها بالرواية الإنجليزية لقصة الإكتشاف:

تزعم الرواية الإنجليزية بأن الرياح والعواصف الشديدة دفعت سفينة الربان الإنجليزي "ويليم سميث"، ذات الصاريين والتي كان اسمها "وليامس" مسافة ٧٦٨ كيلو متراً إلى الجنوب الشرقي من رأس هورن في أكتوبر سنة ١٨١٩ عبر ممر "دريك" حيث وصلت إلى ما يُعرف اليوم باسم "جزر ساندوش"!! وأن أول من رأي تلك الجزر هو "إدوارد برانسفيلد"، ضابط الأدميرالية البريطانية على السفينة. وتضيف الرواية الإنجليزية قائلة إن الربان "سميث" نزل بتلك الجزر واستولى عليها رسمياً باسم "جورج الثالث" ملك بريطانيا. ثم عاد إلى قاعدته حيث أخبر قادة القاعدة البريطانية في "فالباريسو" بأمر هذا الاكتشاف، فما كان منهم إلا جهزوا السفينة "وليامس" تحت قيادة "برانسفيلد"، وعينّوا الكابتن "سميث" ربّاناً لها، وأبحرت مرة أخرى بإتجاه الجنوب حيث تم إكتشاف جزر "شتلاند الجنوبية" والتي سبق الحديث عنها في الفصل الثالث من هذا الكتاب. وهم أول من أطلق عليها هذا الاسم. كما أطلقوا على المضيق الفاصل بين تلك الجزر وشبه جزيرة أنتاركتيكا اسم "مضيق برانسفيلد" على اسم قائد الحملة. كان هذا الاكتشاف في ٣٠ يناير من عام ١٨٢٠. ولقد قام برانسفيلد برسم خرائط لتلك المواقع وحدد عليها إضافة إلى جزر "شتلاند"، جزر أخرى مثل جزيرة الفيل "*Elephant*" والتي تشبه رأس الفيل فعلاً وكذلك جزيرة أخرى أسموها كلارنس "*Clarence*" وتعني العربة!

التنافس الروسي الأمريكي في قاع العالم!

الرواية الأمريكية تقول: إن أول بعثة وصلت إلى الجنوب بعد رحلات الكابتن "كوك" هي بعثة قادها الأمريكي "إدموند فانينغ" سنة ١٨٠٥، إلا أنه "نسيّ!!) أن يدون معظم يومياتها – هكذا تزعم الرواية الأمريكية – أما أول من وصل إلى أنتاركتيكا، حسب زعم الرواية الأمريكية، فهو "ناثانيل بالمر"، حيث وصلها وهو لم يبلغ بعد الحادية والعشرين من عمره، على سفينة لصيد عجول البحر أو حيوان الفقمه. اسمها "هيرو". وذلك عندما أبحر بها من مدينة "ستونغتون" بولاية كونكتيت، ولقد إتخذ مع أربع سفن أخرى لصيد الفقمه من جزيرة الخداع "ديسبشون" قاعدة ينطلقون منها ويعودون إليها.

ثم في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٢٠، أبحر بالمر جنوباً بحثاً عن عجول البحر، وإكتشف وهو في طريقه قناة "أورليانز"، ثم قام بالمر بعد بضعة أشهر برحلة إستطلاعية أخرى إلى الجنوب الشرقي حيث إكتشف باقي شبه جزيرة أنتاركتيكا والتي يطلق عليها الأمريكيون الآن اسم "أرض بالمر"، كما يطلق البريطانيون على البروز الممتد من أرض بالمر بإتجاه المحيط اسم "أرض غراهام".

وكان "بالمر" في طريق عودته من رحلته تلك، عندما سمع أجراس سفن تقرع مُحذرة إياه من الإصطدام بها حيث كان الضباب كثيفاً، فألقى مرساته، وعندما إنقشع الضباب وجد نفسه بين بارجتين كبيرتين، فأنزل علم الولايات المتحدة الأمريكية، ورفعت البارجتان علماً يحمل صليب القديس أندرو، وكان علم روسيا القيصرية آنذاك. ولقد دُهشَ الروس عندما رأوا سفينة بالمر الصغيرة في تلك المنطقة النائية والخطرة من العالم فقد كانوا يظنون أنهم أول من وصل تلك المنطقة. ولقد أخبر "بالمر" قائد البعثة الروسية عندما دعاه

لزيارته على ظهر بارجة القيادة، أنه أي "بالمر" كان يعمل في تلك المنطقة منذ أربعة أشهر. وهذا ما دونه قائد البعثة الروسية في سجله الخاص.

أما قائد البعثة الروسية، فكان هو الأدميرال "ثاديوس فون بلينجزهاوزن" أرسلته روسيا القيصرية على رأس بعثة لإرتياد جنوب العالم في بارجتين حربيتين هما "فوستوك" و"ميرني"، خاصة وأن روسيا القيصرية قد أصبحت دولة من دول العالم العظمى بعد هزيمة نابليون وعودته خائباً من دخول موسكو بعد حصارها

يُعتبر الأدميرال "بلينجزهاوزن"، طبقاً للرواية الروسية، هو أول من طاف بحراً بالقارة القطبية الجنوبية، منذ رحلة الكابتن "كوك"، وفي يناير من عام ١٨٢١م أطلق الأدميرال الروسي على إحدى جزر القارة اسم جزيرة القارة اسم جزيرة بطرس الأول على اسم أحد قياصرة روسيا، والذي يُعتبر الراعي الأول للإستكشافات الروسية، الذي أوفد "بيرنغ" المستكشف الروسي، لإكتشاف ما بقي من آلاسكا والتي كانت أرضاً روسية في تلك الأيام، ثم إشترَها وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية "وليام سيوارد" من روسيا سنة ١٨٦٧م بمبلغ ٧ مليون ومائتي ألف دولار أمريكي!، ولقد وبّخ الشعب الأمريكي وزير خارجيته على تلك الصفقة (الخاسرة!) وأطلق على آلاسكا تهكماً اسم "ثلاجة سيوارد" لأنه رأي فيها أرضاً جليدية قاحلة لا تساوي ما دفُعَ فيها!!. هي التي لا تُقدَّر بثمن الآن. وكانت تلك الصفقة أكبر أخطاء روسيا على الإطلاق والتي لا زلت تعض عليها أصابع الندم!.

عودة إلى الأدميرال الروسي، فقد إكتشف في ٢٨ يناير ١٨٢١ ساحلاً جبلياً وعراً أطلق عليه اسم "أرض الإسكندر الأول" تكريما لقيصر روسيا الذي كان يتربع على عرشها في ذلك الوقت.

كان الروس يظنون كغيرهم، إن أرض الإسكندر الأول هي جزء من القارة القطبية نفسها، وكان هذا الظن هو حجتهم الكبرى على أن الأدميرال "بلينجز هاوزن" هو المستكشف الأول للقارة نفسها، إلا أن الأمريكيين "فين روز، وكارل أكلوند" أثبتا بعد رحلة الأدميرال الروسي بأكثر من قرن، بأن أرض الإسكندر الأول ما هي إلا جزيرة وذلك عندما قاما برحلتهما الشهيرة بواسطة الزحافات.

والغريب أن روسيا ومن بعدها الإتحاد السوفيتي، لم تستغل منجزات الأدميرال "بلينجز هاوزن، بل إنها توقفت تماماً عن إرسال أية بعثة أخرى طيلة ١٣٦ سنة حتى عام ١٩٥٧م عندما عاودت الإهتمام بالقارة ربما لأغراض عسكرية أثناء الحرب الباردة أنها حتى اليوم لم توظف اهتمامها بالقارة لأسباب سياسية!

على كل حال لم يخرج الأدميرال الروسي من تلك المغامرة صفر اليدين، فقد أطلق اسمه على جزء من مياه المحيط المتجمد الجنوبي، إذ تُعرف المنطقة التي تصل ما بين أرض بالمر في شبه جزيرة أنتاركتيكا وأرض إلس ورث باسم "بحر بلينجز هاوزن"

السباق المحموم على الكعكة المتجمدة!

وبدأ السباق المحموم بين الدول الإستعمارية لوضع اليد على الكعكة المتجمدة فرنسا دخلت الميدان وإن كانت متأخرة قليلاً عن غريمتها التقليدية بريطانيا بسبب مغامرات إمبراطورها الهالك نابليون. ففي سنة ١٨٣٦م أمر الملك لويس فيليب ملك فرنسا بإعداد بعثة تحت قيادة "جول سباستيان دورفيل" وأمره شخصياً بأن يتخطى في إبحاره خط العرض ١٥ ´ ٧٤ ° جنوباً، أي أبعد مما وصل إليه الملاح البريطاني "جيمس ويدل" سنة ١٨٢٢، وذلك في محاولة من ملك فرنسا لإذكاء روح المنافسة مع بريطانيا، إلا أن قائد البعثة لم يهتم كثيراً بتنفيذ رغبة الملك تلك فقد إكتفى بإرتياد جزيرة "جونفيل" في شهر فبراير من عام ١٨٣٨، وقام بإعداد خرائط المضائق والجزر دون أن يورط نفسه وبحارته في اقتحام بحر ويدل الذي يقع ما بين شبه جزيرة أنتاركتيكا وأرض كوتس. والحقيقة أن الإتجاهات الأصلية هنا تغدوا متداخلة، فكل إتجاه لأعلى يشير إلى الشمال بغض النظر عن المكان، وكل إتجاه لأسفل يشير إلى الجنوب، أي أن البوصلة المغناطيسية لا يُعتمد عليها إطلاقاً في تلك المناطق وهذه قصة أخرى!

عودة مرة أخرى إلى الربان الفرنسي "دورفيل"، فقد أقلّع في اليوم الأول من شهر يناير سنة ١٨٤٠ بسفينتين من تسمانيا قاصداً جنوب شرق للبحث عن مركز القطب المغناطيسي الجنوبي، ولقد لاحظ بعد عشرين يوماً من الإبحار وسط مياه هادئة مصقولة كالمرآة كما يقول البحارة، إضطراب البوصلة المغناطيسية إضطراباً شديداً، وكانت إبرتها تدور دوراناً عنيفاً، مما دل على إقترَب البعثة من مركز القطب المغناطيسي وهو بخلاف القطب الجغرافي الجنوبي.

شاهد "دورفيل" أثناء إبحاره، جداراً جليدياً على ساحل القارة يبلغ ارتفاعه حوالي ٣٦ متراً، فأرسل عدداً من رجاله ليتبينوا معالم تلك الأرض. فاتضح لهم أنها عبارة عن جزر تتصل بالقارة بواسطة طُنف جليدي. ويبلغ إرتفاع سطح الأرض خلف تلك الجزر ١٢١٩ متراً!. فأطلق عليها "دورفيل" اسم أرض أديلي "*Terre Adelie*" على اسم زوجته. وهكذا وضعت فرنسا يدها على جزء من القارة ولأول مرة ولا زال هذا الجزء تحت سيطرة فرنسا حيث أقامت هناك محطة أبحاث باسم "ديمونت دي أورفيل" على اسم المستكشف الفرنسي.

قصة "دي أورفيل" لم تنته هنا، بل لعلها بدأت، إذ ما أن انتهى الربان الفرنسي من إستكشافه، وحقق رغبة مليكة في الإبحار إلى أقصى الجنوب أبعد مما وصل إليه البريطانيون. وبعد إبحار دام أسبوعاً وهو في طريق عودته وسط جبال الثلج، شاهد سفينة ذات شراعين كئيبة المظهر مقبلة نحوه عند خط العرض ٦٥ درجة جنوباً وكانت تلك السفينة تحمل العلم الأمريكي!.

كانت السفينة الأمريكية "بوربويز" التي شاهدها الربان الفرنسي "دي أورفيل" واحدة من عدة سفن تُشكل بعثة أمريكية، لعلها كانت أكبر البعثات الإستكشافية في ذلك الوقت، وكانت تحت قيادة ضباط البحرية الأمريكية الملازم "تشارلز ويلكس".

كان الضابط البحري الأمريكي قد أبحر في ستة سفن هي سفينة القيادة "فينسن" و"بيكوك" وسفينة المدفعية "بوربويز" وسفينة التموين "ريليف" إضافة إلى سفينتين مساعدتين هما: "فلاينغ فش" و"سي جل"، والأخيرة إبتلعتها مياه رأس هورن بمن عليها أثناء إعصار شديد، ولم يظهر لها أي أثر حتى الآن!

ورغم كبر هذه الحملة التي قادها ذلك الضابط المغامر، إلا أنها لم تكن مجهزة تماماً لتلك البحار الخطرة المرعبة، لا من حيث المعدات أو الملابس أو الأجهزة، ولا حتى السفن نفسها كانت من القوة بحيث تتحمل تلك الأجواء. بل الأسوأ من ذلك أنها كانت متآكلة وصدئة. وكانت سفن الحملة تغيب عن بعضها البعض أسابيع عديدة حتى تلتقي مرة أخرى بسبب العواصف والأنواء.

في الثلاثين من يناير سنة ١٨٤٠م، وصلت بعثة "ويلكس" خليجاً تحف به الصخور الصلدة، ويطوقه جدار من جليد شامخ. أطلق "ويلكس" على ذلك الخليج اسم "خليج بانير" على اسم ضابط الإشارة الذي كان يرافق البعثة. ومن ثم أطلق على القارة ولأول مرة اسم القارة القطبية الجنوبية وكان هذا بعد سنة ونصف السنة من مغادرته الولايات المتحدة الأمريكية.

صُعِق الربان الفرنسي "دي أورفيل" عندما سمع تلك القصة من الأمريكيين، إذ أنه كان يعتقد بأن بعثته وصلت قبلهم وأنه سبقهم لإكتشاف تلك المواقع التي يتحدثون عنها ولم يزل الجدل قائماً بين الفريقين، حتى تدخل بعض الوسطاء الذين أثبتوا أن الفريقين الأمريكي والفرنسي وصلا القارة في يوم واحد. ذلك أن "دي أورفيل" لم يحسب الفرق عند عبوره خط التوقيت الدولي "*Inter. Date line*"، وهو موضوع طويل يعتمد على تقسيم خطوط الطول حيث يكون الوقت عند هذا الخط منتصف الليل، وعند خط غرينتش منتصف النهار، وعند عبور خط التوقيت الدولي ينبغي إضافة أو طرح ٢٤ ساعة طبقاً للإتجاه شرقاً أو غرباً بغض النظر عن المسافة المقطوعة. ولهذا فقد التبس الأمر على الربان الفرنسي وظن أنه سبق الأمريكيين بيوم واحد!

البحث عن القطب المغناطيسي الجنوبي

كان الحافز الأكبر لإرتياد الأصقاع الجنوبية وإكتشاف القارة في تلك الأيام هو صيد عجول البحر والحيتان. وأول من وصل القارة القطبية بحثاً عن عجول البحر هو الملاح البريطاني "جيمس ويدل" والذي أطلق اسمه على أحد بحار القارة. ولكن من هو ويدل هذا؟.

إنه أحد رواد صيد عجول البحر في المنطقة الجنوبية، أسكتلندي الأصل، بدأ رحلته الأولى في فبراير سنة ١٨٢٣م. حيث وصل المنطقة البحرية التي تقع شرقي أرض بالمر والتي أطلق عليها اسمه وأصبحت تعرف حتى اليوم باسم بحر ويدل، ثم وصل بعد ذلك جنوب خط العرض ١٥ ٧٤ وهو خط العرض الذي طلب الملك الفرنسي لويس فيليب من الملاح دورفيل أن يتجاوزه جنوباً ليحطم رقم ويدل

شاهد ويدل عجول بحر كبيرة لم تكن مألوفة لديه أو معروفة من قبل وهو الخبير المتخصص فيها، فأطلق عليها اسمه فأصبحت تعرف باسم "*Weddel Seal*" وهي أحد أنواع عجول البحر التي سوف نتطرق لذكرها عندما نصل إلى قريتها بالقرب من القاعدة البولندية.

دخلت الشركات الخاصة مضمار البحث والإستكشاف بهدف جني الربح من صيد عجول البحر والحيتان، ومن ضمن الشركات التي رعت الكثير من رحلات الإستكشاف شركة "إخوان أندربي" وهي شركة إنجليزية مقرها لندن ومجال عملها صيد الحيتان وعجول البحر، وهناك أرض شاسعة في قارة أنتاركتيكا حالياً تسمى باسم أرض أندربي "*Enderby Land*" على اسم الشركة، ومن أشهر الرحلات التي أوفدتها تلك الشركة، رحلة السفينتين "تولا" و"ليفلي" وهما سفينتان صغيرتان لصيد عجول البحر. قضى مرض

الاسقربوط على جميع بحارة السفينتين بعد إبحارهما من أرض أندربي ولم ينجُ سوى ربان السفينة "ليفلي" وبحار وخادم! كما تحطمت سفينة أخرى تدعى "روز" على الجليد شمال بحر ويدل، وأنقذت طاقمها سفينة أخرى كانت مرافقة لها. أما السفينة "سابرينا" التي أبحرت بعد ذلك بسنوات، فقد اختفت هي وبحارتها إلى الأبد في إحدى العواصف العاتية ولم يعثر لها على أثر حتى اليوم!

ثم توقف بعد تلك الكوارث الإهتمام بصيد عجول البحر نظراً للمخاطر الكبيرة إلا أن الإهتمام العلمي للإستشكافات بدأ في الصعود، وكانت المغناطيسية الأرضية هي أهم الأهداف العلمية التي سيرت لها الدول البعثات العلمية الإستشكافية

بدأ الإهتمام بالمغناطيسية الأرضية على يد العالم الألماني "الكسندر فون همبولت". ثم تطور علم المغناطيسية بعد ذلك على يد عالم ألماني آخر هو "يوهان كارل فريدريش جاوس" الذي إستنبط العناصر الثلاثة التي تتألف منها قوة الأرض المغناطيسية وهي: الإتجاه الأفقي، والإتجاه الرأسي، والشدة. ولقد أدى إكتشاف تلك العناصر الثلاثة إلى إفترَض وجود قطب مغناطيسي جنوبي يقابل القطب المغناطيسي الشمالي الذي تم إكتشافه أولا.

وبهدف تحديد القطب المغناطيسي الجنوبي، فقد أرسلت فرنسا بعثتها الأولى برئاسة "دورفيل"، وأرسلت الولايات المتحدة بعثتها برئاسة "تشارلز ويلكز" الذي نازع دورفيل مجد إكتشاف وتحديد أجزاء من القارة. ولقد قرر ويلكز وجود القطب المغناطيسي على بعد ٢٣٠ ميلاً تقريباً داخل القارة جنوبي خليج "باينر" الذي إكتشفه.

ولقد ارتاد ويلكز أرض أندربي التي إكتشفتها قبله بتسع سنوات إحدى سفن الشركة الآنفة الذكر. ثم قفل راجعاً حيث إعترضه جدار من جليد أطلق عليه اسم "نهاية المطاف"

وهـو عبـارة عـن شبـه جزيـرة مـن جليـد سميـك جـداً والـذي أطلـق عليـه بعـد ذلـك اسـم طُنـف شاكلتون الجليدي "*Shackleton Ice Shelf*" ولازال يعرف بهذا الإسم حتى اليوم.

ولعل قصة هذا الضابط البحري الأمريكي، ويلكز إلى حد كبير قصة كولومبس فرغم جهوده الكبيرة في اكتشاف أجزاء عديدة من القارة، إلا أنه وبدلاًمن أن يستقبل من قبل حكومته ومواطنيه إستقبال الأبطال، فقد تم تقديمه للمحاكمة أمام مجلس عسكري بسبب اتهام ضباطه له بالظلم والإضطهاد وسوء الخلق. إذ أنه من بين ٥٨٥ ضابط وبحار كانوا معه عند بداية الرحلة، هرب منهم ١٢٧، وقُتِل أو مات ٢٣، وعانى الباقون الأمريَّن من قسوة ويلكز وغلِظته وجبروته.

التحدي البريطاني مرة أخرى!

أثار تحدى البعثة الفرنسية لإستكشافات الإنجليز حفيظتهم مرة أخرى، فأني لهم أن يتركوا المجال لغريمتهم لكي تنتصر عليهم حتى ولو كان الأمر مجرد إكتشاف قطعة ثلج عائمة هناك في قاع العالم!. ولأن الدوافع والحجج في تلك الأيام هي في سبيل البحث العلمي وإكتشاف القطب المغناطيسي، إذا لا غضاضة بأن تحذو بريطانيا حذو الآخرين وتزعم كما يزعمون أنها تهدف من تسيير بعثاتهم نحو الجنوب للبحث عن القطب المغناطيسي، إذا لا غضاضة بأن تحذو بريطانيا حذو الآخرين وتزعم كما يزعمون أنها تهدف من تسيير بعثاتهم نحو الجنوب للبحث عن القطب المغناطيسي الجنوبي.

وبالفعل أوفدت بريطانيا بعثة خاصة لدراسة المغناطيسية الأرضية بقيادة "جيمس كلارك روس"، وهو ضابط بحري نجح في تعيين وتحديد القطب المغناطيسي الشمالي وذلك في سفينتين خشبيتين صممتا خصيصاً لإرتياد تلك المناطق الصعبة وكانتا من أقوى السفن التي أبحرت في البحار القطبية الجنوبية في ذلك الوقت، كما تم تجهيز ثلاثة صواري لكل واحدة منهما لكي تساعدها على المناورة في المضايق الوعرة والمداخل الضيقة.

في شهر أغسطس من عام ١٨٤٠ وصلت بعثة روس إلى ميناء "هوبارت" في جزيرة "تسمانيا" وهي جزيرة تقع جنوب استرليا، حيث أقامت البعثة مرصداً مغناطيسيا ثابتا. وعَلِم "روس" وهو في تسمانيا بنبأ الفرنسي "دورفيل" والأمريكي "ويلكز" وصراعهما حول المناطق المكتشفة. فأنزعج أيما انزعاج خاصة وأنه كان ينوي الإبحار إلى تلك المناطق المتنازع عليها. فقرر من فوره ودون دراسة أو تخطيط أن يتجه بعيداً عنهم. إلى أقصى شرق القارة وكما يقول المثل العربي رُبَّ ضارة نافعة، فقد كان طريقه الأخير أسهلاً وأيسراً بكثير من الطريق الأصلي الذي كان ينوي الإبحار فيه.

في الأول من يناير سنة ١٨٤١م، عبر روس الدائرة القطبية الجنوبية، ثم في٥ يناير دخل المياه المتجمدة وأخذ يبحر فيها ولأول مرة في التاريخ. وفي التاسع من يناير وصل ما يعرف اليوم باسم "بحر روس" "*Ross Sea*"، وشاهد أثناء إبحاره في مياه البحر الذي أطلق عليه اسمه، ساحلاً ينثني حتى ينتهي برأس كرأس الخنجر أطلق عليه اسم رأس أدير "*Cape Adare*".

ثم في ٢٧ يناير أرسى روس سفينته على الساحل الصخري لجزيرة تبعد حوالي ١٢٨ كيلو متراً من أرض القارة، حيث أطلق عليها اسم جزيرة فرانكلين، كما شاهد روس ورجاله جزيرة قريبة منهم يتوسطها جبل أشم يبلغ ارتفاعه ٣٧٩٤ متراً فوق سطح البحر، ولقد بدأ الجبل وهو مغطى بالجليد كأنه كتلة هائلة من الثلج، وكان اللهب والدخان يتصاعدان من قمة ذلك الجبل إلى ارتفاع ٦٠٠ متر تقريبا، ولقد تبين لهم فيما بعد إن ذلك الجبل ما هو إلا واحداً من أعظم براكين العالم. وأطلق عليه اسم "*Mount Erebus*"، كما أطلقوا على الجزيرة اسم جزيرة روس.

لقد حاول روس الإبحار جنوباً، إلا أنه أصطدم فجأة بالطُنف الجليدي المتصل بالقارة، والطنف الجليدي هذا عبارة عن مساحة شاسعة من الجليد أو البحر المتجمد يبلغ سمكه أكثر من ٧٠٠ قدم ويسد خليجاً هائلاً يعادل مساحة فرنسا وأطلق على هذا الطُنف الجليدي اسم روس نفسه قائد الحملة "*Ross Ice Shelf*" والذي لا زال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم.

كان هدف روس من كل تلك المحاولات، هو الوصول إلى القطب المغناطيسي الجنوبي وتحديده كما فعل سابقاً بالنسبة للقطب المغناطيسي الشمالي، إلا أنه لم يفلح في الوصول إليه بسبب الجليد الهائل المحيط بالقارة.

ولقد وصل إلى أقرب نقطة من هدفه الذي يبعد عنه بحوالي ٢٥٦ كيلو متراً واضْطر إلى العودة إلى تسمانيا للإعداد لفرصة أخرى، وذلك بعد أن أطلق اسم ملكة بريطانيا العظمى الشابة آنذاك فيكتوريا "*Victoria Land*" على مساحة شاسعة من أرض القارة.

عاد روس بعد ذلك في بعثتين جُهزتا تجهيزاً جيداً، إلا أنه لم يحقق هدفه الأساسي قط وهو تحديد موضع القطب المغناطيسي، ولكن رغم هذا يعد روس واحدا من أعظم مستكشفي القارة القطبية الجنوبية.

انقضت حوالي ٤٨ سنة بعد رحلة روس الأولى، كاد العالم أن ينسى القارة القطبية الجنوبية، إذ لم يتم تسجيل أية بعثة إستكشافية غادرت إلى المنطقة، إلى أن جددت بريطانيا مرة أخرى رغبتها في معاودة إرسال البعثات الإستكشافية من جديد وإن كانت في صورة مختلفة، فقد قام السير "جورج نيونز"، أحد كبار ملاك الصحف في بريطانيا بتمويل بعثة إستكشافية بقيادة الملاح النرويجي الأصل "كارستنس بورخجريفنك"، الذي تمكن من إختراق الطُنف الجليدي السميك المحيط بالقارة يوم ١١ فبراير سنة ١٨٨٩، ثم وصل بعد ثمانية أيام خليج روبرتسن حيث ألقى مراسيه فيه وكانت أول سفينة ترسو في القارة القطبية الجنوبية

مفارقة عجيبة، أحد ملاك الصحف الإنجليز يرسل منذ أكثر من مائة عام بعثة بحرية كاملة على حسابه لإستكشاف القارة، والصحافة العربية في نهاية القرن العشرين عجزت عن أن تُرسل صحفياً واحداً فقط لكتابة تقرير عن القارة وصراع الدول عليها، وعندما قام كاتب هذه السطور برحلته هذه على نفقته الخاصة، سطت بعض المطبوعات العربية على مقالاته ونشرتها حرفيا بزعم أنها كانت هناك!!

أقامت البعثة أول معسكر شتوي على أرض القارة ولأول مرة في تاريخ الإستكشافات القطبية الجنوبية، وتطوع للإقامة في ذلك المعسكر عشرة رجال لمدة ٧٥ يوماً قاسوا خلالها أهوال شتاء القارة المظلم وسط عواصف ثلجية عاتية بلغت حداً من القسوة مما جعل أحد الرجال العشرة يدون في يومياته ما يلي: "لم يكن بإمكان أحد منا مجرد التفكير بالزحف على أربع للوصول إلى مقاييس درجة الحرارة خارج الكوخ وسط تلك العواصف الرهيبة!".

ولكن ما مر بهم من مواقف عصيبة، إلا أنهم لم يضيعوا وقتهم سُدى، فقد أعد الملازم ويليم كولبك أحد أعضاء البعثة خرائط ورسوم بيانية للمنطقة، كما اكتشف قائد البعثة "بورخجريفنك" نهرين جليدين أطلق عليهما اسمي "نيونز" و"ميري"

ثم أبحرت السفينة بعد ذلك جنوباً إلى الحاجز الجليدي الذي منع روس من الإبحار فيه، وكان هذا الحاجز قد تراجع إلى الخلف مسافة ٤٨ كيلو متراً، فألقوا مراسيهم هناك،ثم انطلقوا على زحافات تجرها الكلاب إلى خط عرض ٥٠´ ٧٨° جنوباً في أقصى نقطة وصلها إنسان في ذلك الوقت. وكانت أول مرة يتجول فيها الإنسان على أرض القارة في التاريخ.

لقد فتحت البعثات البريطانية الباب على مصراعيه، فأخذت الدول الأخرى تتنافس في الحصول على موطئ قدم لها في القارة فقد يكون لها نصيب مما تخبئه الأقدار في باطنها ذات يوم!

إلا أن أعظم المغامرات التي سجلها التاريخ لنا على أرض تلك القارة، كانت رحلة المجد والشهرة التي حققها النرويجي أمندسن، ورحلة اليأس والموت والتي كانت من نصيب البريطاني سكوت وهذا هو حديث الفصل التالي...